المحاضرة الرابعة

بيبليوغرافيا الدراسات النحوية عند العرب

السّنة الأولى ماستر تخصص لسانيات تطبيقية

نال علم النحو حظا وافرا من الدراسة والبحث عند علماء العربية القدماء وكانت نشأته على ضفاف شط العرب، فربته البصرة وليدا، وغذّته الكوفة بلبانها ليمتد لاحقا صوب الشام ومصر وإفريقيا، والمغرب والأندلس محتميا بضلال القرآن الكريم، ومنضويا تحت راية الإسلام.

وإن كان من الباحثين من يرى أن النحو لم يكن في بداية الأمر صناعة علمية ولم يوضع دفعة واحدة في زمن واحد، فإن أغلب الدراسات تشير إلى أن البدايات الأولى لحركة التأليف فيه بدأت نتيجة الملاحظات النقدية التي تتمثل في إصلاح الإخطاء*، والتي اعترت اللسان العربي، لاسيما بعد امتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم.

وقد انتهج علماء العربية في وضع هذا العلم منهجًا متميزًا في البحث اللغوي معتمِدين على ذوقِهم وإعمال العقل ودقة الملاحظة، وكان لهم فضلُ السَّبْق في الوقوف على كثيرٍ مِن

---

*- من الحقائق الثابتة أن العرب كانت تنطق الفصحى على سجيتها، ولم تحتاج إلى علم كي يقوّم لسانها، وقد ورثت لغتها أبا عن جد، ميراث دم ونسب لا تجربة ومران، وظلت على هذه الحال حتى انتشر الإسلام، واختلط العرب بغيرهم من الأعاجم، فأصيب اللسان العربي بالعجمة، الأمر الذي أدى إلى التفكير في وضع قواعد ثابتة تضبط اللسان العربي وتحفظه من اللحن، وتسهل على الناس قراءة القرآن الكريم.

الظواهر النَّحْوية التي أفاد منها المحدثون، وللحديث عن حركة التأليف في علم النحو في الثراث العربي يمكننا التطرق إلى المراحل الآتية :

1/ <u>مرحلة الوضع والتأسيس:</u> تنسب هذه المرحلة لمدرسة البصرة، وتبدأ بأبي الأسود الدؤلي (ت69ه)، وتمتد إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170ه)، وقد ذكر السيرافي في أخبار النحويين البصريين بعض رجال هذه المرحلة، منهم يحي بم يعمر، وعنبسة الفيل وميمون الأقرن، ونصر بن عاصر الليثي، وعبد الرحمن بم هرمز، وعطاء بن أبي الأسود الدؤلي وغيرهم.....، وقد ذكرت الروايات أن لهم نشاطا نحويا لم يصلنا شيئ منه، ويعلل العارفون ذلك كونهم كانوا قرّاء، وما نسب إليهم في بعض المسائل اللغوية في الإعراب فهي مجرد ملحوظات ذهنية مبنية على السليقة اللغوية، ولا يمكن أن نطلق عليها صفة البحوث النحوية الخالصة.

<u>2/ مرحلة بناء القواعد والأصول:</u> تنسب هذه المدرسة أيضا لمدرسة البصرة، ومن أبرز رجالها نذكر عبد الله بن إسحاق الحضرمي (ت118ه)، وعيسى بن عمرو الثقفي ، وأبو عمرو بن العلاء، وفي هذه المرحلة ظهرت فكرة القياس على يد عبد الله بن إسحاق الحضرمي الذي روي عنه أنه كان يخطئ الشعراء الذين يخرجون عن القاعدة النحوية كما يعدّ مبدع فكرة الأصل في الدرس اللغوي، والتي ستتطور عند رجال المرحلة اللاحقة أما فيما يخص الاعتداد بالسماع فيعد أبو عمرو بن العلاء من أشد رجال هذه المرحلة

تمسكا به. كما ظهرت في هذه المرحلة مسألة الخلاف النحوي، والتأويل والتفسير للنصوص اللغوية، ومن الملحوظ أيضا أن البحوث النحوية حتى هذه المرحلة لم تسجل، وظلت تتناول وتتطور شفويا في حلقات الدرس ومجالس المناظرة.

3/ مرحلة النمو والإبداع: تشمل هذه المرحلة علماء مدرستي البصرة والكوفة، حيث يلتقي فيها رجال الطبقة الثالثة والرابعة والخامسة من البصريين بزعامة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والأخفش الأوسط، برجال الطبقة الأولى والثانية والثالثة من الكوفة ومنهم : أبو جعفر محمد بن الحسن بن سارة الرؤاسي، و أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله الفراء.

اتسمت هذه المرحلة باستيعاب الدرس النحوي بمفهومه الشامل الذي يضم النحو والصرف والصوتيات، حيث ظهرت مؤلفات تضم كل هذه العلوم مجتمعة مع بعضها على غرار كتاب سيبويه، والعين، ومعاني الحروف للخليل بن أحمد، والأوسط في النحو ، و المقاييس في النحو للأخفش الأوسط، ومختصر النحو للكسائي، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث للفراء، وغيرهم كثير.

كما شهدت هذه المرحلة نضجا في مسألة القياس والتعليل لاسيما عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، كما ظهرت فكرة العامل وبعض المصطلحات النحوية الأخرى (الفاعل

المفعول ، المضاف، المضاف إليه، حروف النصب، حروف الجر، التعجب..... الخ) نتيجة تأثر الدراسات النحوية بالدراسات الفقهية والكلامية.

4/ مرحلة النضج والاكتمال: اشتهر في هذه المرحلة رجال من المدرستين(الكوفة والبصرة)، وضمت كل من أبو عثمان بكر بن محمد المازني، وأبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، وأبو العباس أحمد بن يحي ثعلب، وأبو عمرو صالح بن عمرو الجرمي وأبو محمد عبد الله بن محمد التوزي، وأبو حاتم سهل محمد السجستاني، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد.

وكانت هذه المرحلة فاصلة إلى أبعد حد، حيث شهدت استقلال علم التصريف عن النحو في التأليف، وإن اختلف النحاة في أول من ألف كتابا مستقلا في علم التصريف ومن مميزات هذه المرحلة أيضا محاولة صياغة المادة النحوية صياغة جديدة، وترتيبها وفق منهج يختلف عن منهج سيبويه، وهنا عدّ النحاة المبرد أول شخصية نحوية تصدت للمادة النحوية وتناولتها بالشمول في كتابه المقتضب.

4/ مرحلة الترجيح والاختيار والاجتهاد: ترتبط هذه المرحلة بالمدرسة البغدادية، واختلف النحاة والباحثون في تحديد الفترة التي نشأ فيها هذا الجيل، فذهب البعض منهم إلى أن بواكير هذا الجيل تمتد إلى أواخر القرن الثالث الهجري لتتضح سماته في القرن الرابع الهجري، ومنهم من رأى أن مذهب البغداديين يعود إلى زيارة سيبويه لبغداد في النصف

الثاني من القرن الثاني للهجرة، ويعدّ أحمد مكي الأنصاري الفرّاء هو المؤسس الحقيقي للمذهب البغدادي، ويعد آخرون علي الفارسي وابن جني مؤسسي هذا المذهب في القرن السادس الهجري.

وتعد هذه المرحلة مزيجا بين المدرستين البصرة والكوفة*، مضافا إليها عنصران هما التحرر العقلي والتجديد والابتكار في بعض المسائل النحوية والصرفية والصوتية (اختراع علم أصول النحو، استكمال الدراسات الصوتية،.....) ، حيث أتيح لجيل هذه المرحلة أن ينظروا في آراء المدرستين ويوازنوا بينها، فأصبحت لهم آراء في النحو أساسها الاختيار والترجيح بين آراء البصرة والكوفة مع الميل إلى أحدهما.

ومن رجال هذه المرحلة نذكر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ت296ه)، وابن كيسان(ت299ه)، وعثمان بن منصور البلطي، وأبو موسى الحامض(ت 305ه)، وأبو القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي (ت340ه)، وأبو علي الفارسي(ت377ه)، وأبو الفتح عثمان ابن جني (ت 392ه).

* يستخدم النحاة مصطلح المدرسة البغدادية للإشارة إلى المدرسة التي ظهرت بعد البصرة والكوفة إثر انتقال الخلافة إلى العباسيين ببغداد، وهنا شهدت هذه العاصمة نزوح العديد من النحاة والباحثين اللغويين ينشدون الحظوة والمكانة الرفيعة عند الامراء وطلبا للعلم. وقد نشأ في هذه الفترة جيل من الباحثين ينتقلون بين حلقات الفريقين (البصرة والكوفة) ليختمر في أذهانهم آراء المذهبين.

ومن المؤلفات نذكر: سر صناعة الإعراب، الخصائص، (لابن جني)، جامع النحو، إعراب القرآن(للدينوري)، الجمل في النحو ، الإيضاح في النحو،(للزجاجي) المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون،.(لابن كيسان)، ...الخ .